« الغثيان » وتجربة اكتشاف الأشياء

بقلم ايريس مردوخ
ترجمة صبري حافظ

« منذ حوالي عامين ، ظهرت الترجمة العربية الملحمة سارتر الروائية « دروب الحرية » (١) ... وكنت احسب ان ترجمة مثل هذا العمل للعربية سيلقي حصاة كبيرة تحرك السطح الهادىء لمياه الفكر العربي، وتطرح الكثير من القضايا للمناقشة ، غير انني انتظرت فترة طويلة دون ان يتحقق حدسي هذا ، اذ اكتفى الجميع بالاعجاب الشفوي دون ان يفكروا في محاولة مناقشة القضايا العديدة التي تطرحها الرواية منوجهة النظر الوجودية التي يؤمن بها كاتبها ، ولا بد ان يكون لدى وجهات النظر المختلفة رأي في هذه القضايا .

ورغم ان هذه الرواية بالذات قد اثارت مناقشا تعديدة حال ترجمتها الى اللغات المختلفة ، الا انها - للاسف - لم تترك سوى الاعجاب العاجز الابله على وجوه مثقفي العربية - ومثقفي القاهرة على وجه الخصوص - الذين يكتفي معظمهم عادة بالثقافات السهلة ، ويطرحون أغلب القضايا - على صعيد المناقشة - من وجهة نظر جزئية ، ومثالية غالبا ، وبطريقة مبتسرة تميع اكثر القضايا ، ان لم تقتلها خلال مناقشات تعصبية - خالية من أي خلفية فكرية في اغلب الاحوال - يتقاذفون خلالها الاتهامات اكثر مما يحاولون مناقشة الحقائق بطريقة موضوعية ...وان كنت آعذر للبعض صمته ، فانني لا استطيع ان اعفيه من مسؤوليته حتى ولو تعلل الكثيرون بفقدهم لوجههم التعبيري امام عقبات راهنة .. ذلك لان ازاحة هذه العقبات تدخل - بلا شك - ضمن نطاق مسؤوليتهم .

وان كشف هذا السكوت التام امام رواية سارتر عن شيء ، فانه يكشف عن عجز المثقفين عندنا عن مناقشة الاعمال التي تمتاز بدرجة من الفنية والموضوعية ، بينما يكتفون بالتسلق والاستذة على الاعمال البسيطة .

فمما لا شك فيه ان سارتر قد نثر فلسفته في كل سطر من الرواية، ولكن هل كان هذا في مصلحة العمل الفني ؟.. وهل استطاعت الرواية ان تكون صدورا حقيقيا عن المجتمع الفرنسي - وعن مثقفيه بوجه خاص - في تلك الفترة ؟ وهل كان ماتيو هو الشخصية النمطية لتلك الفترة ، ومن ثم ، اين نضع لوفافر ، وبولتزير وتوريز وكافينج وجبريل بيري وغيرهم ؟.. وهل استطاع البطل ان يجد حريته ؟ وكيف ؟ وهل حققت فلسفة البطل نجاحا حياتيا على درجة من الاقناع الفني والواقعي؟ وهل اثبتت الوجودية كفلسفة جدارتها بأن تكون فلسفة حياة خلال هذا العمل ؟.. والاف من علامات الاستفهام ما زالت تفتقد المناقشة ، الى جانب علامة الاستفهام الرئيسية التي يطرحها العمل ككل ، وهي مشكلة المثقف ، هذه المشكلة التي لم يسبق طرحها بعمق في الادب الغربية ، اذ لم تطرح هذه القضية بطريقة عميقة على صعيد البحث الا في الاداب الماركسية ، باعتبارها احدى التناقضات الاساسية في المجتمعات الاشتراكية التي خطت خطوات واسعة في سبيل حل المشكلة الاقتصادية. و « دروب الحرية » تطرح قضية المثقف - لاول مرة - من وجهة النظر الوجودية وطريقة حله لمتناقضاته مع مجتمعه ومع افكاره التي دمغها الواقع الاجتماعي لفرنسا في تلك الفترة بميسم ، لا اكون مغاليا ان قلت انه ميسم الفشل .

ولقد كانت هذه الرواية مناسبة مواتية لمثقفي العربية لمناقشة قضايانا الفكرية واسقاط آراء ماتيو وغيره على الواقع الاجتماعي الذي نعيشه ، الا ان مثقفينا لم يستطيعوا حتى مناقشة الرواية نفسها دون الخروج باطارها الفكري الى حيز البحث ، بل اكتفى واحد منهم بأن اعترف في شجاعة ، بأنه لا يجد في نفسه الجرأة على مناقشة عمل سارتر ، بينما فرغ هذا المثقف وغيره من مثقفينا الذين يذكرونني بعدمية ماتيو من مناقشة كافة الكتب المقدسة ، بل ورفضها ، كما اكتفى اخران بترجمة مقالين عن الرواية ثم كتب ثالث مقالا تناول فيه جزءين من الرواية (٢) ... وكان الله يحب المحسنين .

هذا الكلام اقوله بمناسبة صدور ترجمة رواية سارتر الاولى « الغثيان » (٣) واني اذ اقدم هنا ترجمة هذه الدراسة لايريس مردوخ(٤) عن الرواية ارجو أن تكون فاتحة لدراسات عربية معمقة تطرح القضايا التي تناولتها الروايتان - قضية المثقف - ، والتي ارجو الا تؤخذ على انها مسلمات لا تقبل المناقشة ، على صعيد مناقشة جادة تتيح لنا النظر بوضوح في كافة قضايا الفكر والادب والثقافة العربية ، بمنهج سليم يتيح لنا رؤية هذه القضايا بطريقة شاملة وموضوعية تحيط بجميع نواحيها خلال تفاعلها مع الواقع الاجتماعي لبلادنا ،حتى ولو خالفنا بذلك ماوصل اليه سارتر ورفضنا افكاره . »

ص . ح .

---

(١) ترجم الرواية باجزائها الثلاثة الدكتور سهيل ادريس وصدرت عن دار الاداب عام ١٩٦١.

(٢) ترجم محمود رجب مقال ايريس مردوخ عن الرواية في الاداب مارس ٦٢ ، وترجم مجاهد ع. مجاهد مقال موريس كوانستون عنها في الاداب يونيو ٦٢ ، اما محمد ابراهيم ابو سنة فهو الوحيد الذي كتب مقالا عنها ، في الاداب سبتمبر ١٩٦٢ .

(٣) ترجمها الدكتور سهيل ادريس وصدرت عن دار الاداب ١٩٦٢.

(٤) ايريس مردوخ هي استاذة الفلسفة والادب بجامعة اكسفورد كما انها من اهم الروائيين الانجليز المعاصرين واشهرهم ، ولدت في ايرلندا عام ١٩٢٥ ومن اهم رواياتها ، تحت الشبكة ١٩٥٤، الفرار من الساحر ٥٦ ، قلعة الرمل ٥٧ ، الناقوس ٥٨ ، رأس مقصومة ٦١ ، الوردة غير الرسمية ١٩٦٢ ، وتتناول أغلب رواياتها شخصيات مرضية شاذة شوهاء وان كانت تسورها رغم ذلك ، بمنتهى البراعة والفنية . (المترجم) .

مع (٥) ان الغثيان (٦) هي اولى روايات سارتر الا انها تحتوي على كل اتجاهاته وافكاره ، ماعدا اتجاهه السياسي ، كما انها ايضا اكثر رواياته اكتظاظا بالفلسفة ، انها تدور حول الحرية ، والايمان الرديء ، وكل سلوك البرجوازيين ، وكذلك مظاهر الادراك الحسي ، وطبيعة التفكير والتذكر والفن ، والمحور الذي تدور حوله هذه الاشياء هو النفور الذي يصاحب تجربة الاكتشاف ، هذا الاكتشاف المصاغ في رطانة فلسفية ، تبدو من خلال الاهتمامات الميتافيزيقية التي يعتنقها البطل « انطوان روكانتان » . هو الاكتشاف العرضي للعالم ، الاكتشاف الذي يمكننا ان نقول انه اكتشاف ينتمي الى تفكير مشتت غير مترابط، وليس الى أي نوع من التفكير الوجداني او المنظم .

ان الرواية تطالعنا بروكانتان وهو جالس على شاطيء البحر ، يمارس تأملاته الفلسفية التي تكتظ بها الرواية ، وحينما يلتقط روكانتان حصاة من طرح البحر ، وينظر اليها مليا يتسلط عليه حبه الشبقي الفظيع للاستطلاع ،لكنه يرميها وينصرف،غير انه بعد ذلك يمر بالاحاسيس نفسها التي عاناها من تجاربه الاخرى المشابهة ، فيجتاحه الخوف من الاشياء ، ويعجز عن تقرير أي الشيئين أجدر بالتغير ، هو ، ام هذه الاشياء السخيفة السمجة التي تفرض وجودها خارجه . ولقد تضايق من هذه الافكار ، فأخذ ينظر الى زجاجة البيرة والى حمالة سروال حارس الحانة ، عند ذلك امتلأ بنوع حلو من الاشمئزاز ، فأخذ ينظر الى وجهه في المرآة ، وفجأة أحس ان وجهه لا انساني ، وانه وجه سمكي ، وبعد تفكير طويل أستنتج بالتبعية الاكتشاف الآتي ... « ليس ثمة مغامرات » ... فالمغامرات حكايات روائية وليس على الانسان ان يعيش رواية ،... آه ... لقد توصل اليها اخيرا ... ان باستطاعة الانسان ان يرى الاشياء من الخارج ، وكم سيكون هذا ممتعا ، ان يستشف معنى المغامرة من نهايتها دون ان يعيشها ، فالاحساس بالمستقبل هو الذي يلون الاحداث وهو الذي يعطيها مدلولاتها ، ذلك لان الانسان حينما يكون داخل التجربة لايستطيع ان يفكر فيها...فالانسان اما ان يعيش التجربة او يحكيها ، اما الاثنان معا ... فهذا محال . وحينما يعيش الانسان التجربة .. الحياة .. فانه لايستطيع ان يصنع أي شيء ، ولا يمكنه ان يبدأ أي بدايات واقعية ، ذلك لان المستقبل لايكون دائما في يده ، فالاشياء تحدث ولكن ليس بالطريقة التي كان يحب روكانتان ان تحدث بها حينما كان يتصور العالم خلال اعتقاده في المغامرات ، فما كان يريده عند ذلك هو المستحيل ، ذلك ان دقائق حياته كانت تسير برتابة وكأنها حياة متذكرة وليست معاشة او كأنها تسير تبعا لجبرية انغام لحن شائع .

واخذ روكانتان يفكر في عمله الخاص ، انه يكتب سيرة حياة ماركيوس دى روليبون ، والقصة التي توصل اليها من خلال تحليله لخطاباته ووثائقه وأوراقه ، ليست هي الحياة الحقيقية التي عاشها روليبون وذلك تبعا للاستنتاج السابق ، اما ان يعيش الانسان التجربة او يكتبها ، وتأكد له تبعا لذلك ان كل ماتوصل اليه ليس هو حياة روليبون ، فاذا لم يستطع حتى الاحتفاظ بماضيه ـ فكر روكانتان ـ فكيف يمكنه انقاذ ذلك من الاخرين ؟ لقد رأى كل هذا في لمحة ، فليس ثمة وجود حقيقي للماضي قط ، وذلك لانه ماض ، فهناك الاثر الظاهر ، ولا شيء خلفه قط ، او بالاحرى كيف توجد الاشياء في الحاضر ، حاضره هو ـ روليبون ـ وما هي هذه الاشياء ؟

فالانا هي التي تحقق الوجود المحض الممتد الى مالا نهاية (٧) ، وهي مركبة من عدة احاسيس غريبة ذات قوام فردي لزج ، ومؤلفه من العديد من الافكار الصغيرة الفامضة .

وحينما زار روكانتان قاعة الصور ، وتأمل الوجه السعيد من حياة البرجوازيين ، هؤلاء الناس الذين لايحسون بأن وجودهم ممتهن وغير مبرر ، ذلك لانهم يعيشون وقد طوقهم نظام روتيني وعائلي رهيب ، كما انهم بحكم ولادتهم داخل هذه الطبقة يجدون انفسهم محملين بديون ثقيلة من المطالب والقيم والفضائل البرجوازية المعلبة ، التي تسمهم بميسم المطالبين بأعطاء حياتهم معنى حقيقيا ، او هكذا يتصورون ، وفوق هذا يمكن اضافة ذلك الاحساس بالاهمية الذي يمنحهم اياه تفكيرهم ومنطقهم الصوري ـ حينذاك زعزعت تجربة روكانتان الاخيرة في نفسه ذلك الاحساس الخاص بيقينية المحاولات العديدة التي قام بها لكي يكسو عري وجوده بأي شيء ذي معنى ، ومن ثم فكر في العودة من جديد الى غثيانه الخصوصي .

وهذا التمهيد هو الذي سيحركنا الان نحو القمة ، وسيوضح لنا بطريقة اعمق معالم شخصية روكانتان الميتافيزيقية ، فقد حاول روكانتان ان يهتف بعد ان جلس في مقعده بالترام « انا متذمر .. لان هذا المقعد مصنوع بطريقة رديئة » ... غير ان الكلمات بقيت على شفتيه ، رفضت ان تخرج لتستريح فوق الاشياء ، ذلك ان الاشياء قد تخلصت من أسمائها ، واصبحت مضحكة ، عنيدة ، حرنة ، ضخمة ، واصبح من الجنون ان تدعو الكلمات لتستريح فوقها ، او ان تقول عنها شيئا . ولقد تابع روكانتان انعكاساته وتأملاته هذه في الحديقة العامة ، ووجد ايضا ان الفرصة مواتية لكي يتأمل طائر النورس البحري الجميل ، فلم يكن قد أحس من قبل بذلك الذي يمكن ان نسميه « الوجود » . فمن قبل لم يكن يشغل فكره شيء سوى التفكير في تزمين الفصائل والانواع وفي تقسيماتها المختلفة ، ولكنه الان يحس ان الاجدر بالتفكير فيه قبل أي شيء ، هو الوجود الخصوصي للاشياء ، رغم فقدان هذا الوجود لطبيعته المناخية المجردة كشيء مفيد . اذ خلال هذه الرؤية يظهر التركيب الدقيق للاشياء . اخذ يفكر في ذلك وقد ثبت عينيه على جذور شجرة الكستناء التي فكر بانها تمتد تماما تحت مقعده ، ثم الم به فجأة هذا الالهام الذي سلمه الرؤيا الكاملة الجازمة للاشياء فقال « لقد فهمت الان انه ليس ثمة طرق وسطى بين عدم الوجود وبين هذه الغشية العميقة ،فما الوجود الى ماينبغي ان يوجد الا نقطة صغيرة» ذلك « لان الوجود يتخفى عادة ويخبيء نفسه ، فهو هنا ، حولنا وفينا، وهو نحن ، ولا نستطيع لفظ كلمتين دون ان نتحدث عنه ، وفي النهاية لانستطيع لمسه ، واذا كنت اظن انني افكر فيه ، تبين لي انني لم (اكن

---

(٥) هذه ترجمة للفصل الاول من كتاب ايريس مردوخ « سارتر الرومانطيقي العقلي » Sartre, Romantic Rationalist by Iris Murdoch, Bowes & Bowes, Cambridge

والكتاب صدر ضمن سلسلة « دراسات في الادب والفكر الاوروبي الحديث »

(٦) ترجمت الغثيان La Nausée الى الانجليزية تحت عنوان The diary of Antoin Roquentine « يوميات انطوان روكانتان » ولقد أثار هذا العنوان قضية اذا ماكان الكتاب سيرة ذاتية Autobiography أم رواية Novel ولكن الجدير بالذكر ان سارتر حينما كتبها لم يشر الى كونها سيرة او رواية ، غير ان الناشر الذي قبلها Gallimard بعد ان رفضها كثيرون عام ١٩٣٨ عرض على سارتر ان يكتب تحت العنوان كلمة رواية فقال سارتر « لايهم .. المهم هو ان تنشر فقط » .

(المترجم)

(٧) ذلك لان الاشياء من وجهة نظر الوجودي ، لاتوجد الا (لاجلي) ولا يكون لها وجود الا (بي) ، ولذلك يقول هيدجر « انا الكائن الذي به يكون ثمة كائن » ويقول سارتر « ان وعيي هو الذي يهب الاشياء وجودها » (الوجود والعدم ص ٣٠٥) كما تقول سيمون دي بوفوار في قصتها (المدعوة) « ان الاشياء لم تكن موجودة الا بوجود فرنسواز » وكما يقول ميرلو بونتي ايضا في كتابه (ظاهرة الادراك الحسي) « بواسطة الوعي يحيطني العالم في البدء ، ثم يأخذ في الوجود لاجلي » غير ان كل هذا لايلغي ابدا وجود الاشياء خارجنا وبدوننا وعدم استطاعة الوجودي الاقتناع بهذه الحقيقة واحد من الاسباب التي تدعوه الى المناداة بعبثية العالم ولا معقوليته .

(المترجم)

افكر شيئا) ... فقد كان رأسي خاليا ، او كانت فيه كلمة واحـــدة فقط .. هي الكينونة » (٨) ونلاحظ ان هذا الكلام يناقض الواقـــع ذاته ، حيث الاشياء توجد بكاملها ولا تتخفى او تختبيء ، فالدائرة واللحن وغيرها ، موجودة ومحتفظة بنقائها وصلابة أشكالها ، ذلك لان الوجود هنا هو الاصل .

ثم نلتقي بعد ذلك بروكانتان ، الذي تخلى عن كتابه عن روليبـــون وقرر ان يتركه ، جالسا في المقهى ، وهو ينصت للمرة الاخيـــرة لجرامافونه المسجل المحبوب حيث كانت امرأة زنجية تغني اغنية « بعض هذه الايام » وحتى من قبل ، حينما كان ينصت الى هذا اللحن ، كـــان يحس ـ مثلما يحس الان ـ بانه شفوف بنقاوته الاثيريـــة وبالضرورة الملحة الى ان يسمعه من جديد ، غير ان الذكريات تتابعت واحدة اثـر الاخرى في رتابة مندلحة في عالم اخر . ومثل الدائرة ، لم يكونـــوا موجودين ، « ولكنهم كانوا » وقال اللحن « يجب ان تكون مثلي ، ويجب ان تعاني من العشق مثلي ايضا » ... انني ايضا اريد ان اكون ، فكـر روكانتان ، ثم فكر ايضا في اليهودي مؤلف الاغنية ، والزنجية التـــي تغنيها ، ومن ثم فقد الهم مرة ثانية ، هذان الاثنان انقذا ، اغتسلا مـــن خطيئة الوجود ، لماذا لاينقذ هو ايضا ... نعم ... لابد ان يخلـــق شيئا ما لكي يغتسل من خطيئة وجوده ، ربما رواية ، تلك التي ستكـون جميلة وصعبة كالصلب نفسه ، وسوف تجعل الناس يشعرون بفيض من الخجل العارم من ميوعتهم . اكتبها ... هكذا قال لنفسه ، لكن امتصته التفاهات العادية الواجب عملها كل يوم ، غير انه سوف يكملها ذات مرة .. هكذا كان يعزي نفسه ، بعد ذلك سوف يفكر في كافة الاشياء الاخرى ، وعليه الان ان يفكر في اليهودي والزنجية اللذين استطاعـــا بعملهما هذا ان يحفزاه ليصنع شيئا يملأ به ماضيه ، حتى يمكنه بعـد ذلك ان يستدعي ماضيه الخاص هذا دون كراهية او قرف او اشمئزاز، وحتى يمكن ان يرضى عنه ، وبهذا العزم والتصميم الذي يحسه روكانتان تنتهي الرواية .

لقد زج بنا هذا الكتاب الغريب في وديان كثيرة ، ذلك انه مكتـوب بنفس النسق الميتافيزيقي القديم ، وان كان سارتر قد اثرى بالمعاني هذا الشك الميتافيزيقي الخالص ، كما حلله ايضا في اطار من المصطلحات والمفاهيم المعاصرة ، مما يدعونا الى القول بانه مقالة في فلسفة المنطـق الفينومنولوجي « الظواهري » للفكر . وهو ايضا مقالة اخلاقية فـــي طبيعة الايمان المزعزع الرديء ، ورؤية جمالية له ، كما ان النهايـــة العاطفية لها لمست الى حد ما بعض الجوانب الاستاطيقية « الجمالية» والسياسية ، وكل هذه الافكار حشدت قواها داخل شخصيات هـــذه الاسطورة او الخرافة الفلسفية ، التي توضح لنا معالم الطريق المعروف الذي يسود فيه الخيال كواحد من اهم سمات الفكر عند سارتر،ولنتناول هذه الظواهر جميعا واحدة اثر الاخرى .

فالشك الميتافيزيقي الذي استحوذ على روكانتان كان عجوزاومتمرسا لانه ذلك الشك الخارجي الذي يتناول دقائق الشكل الخارجي للاشياء، ومشاكل الاستقراء الاحدائي لها . فالشكي يرى العالم خلال دقائـــق الحياة اليومية ، كمكان ساقط وملوث وحقير ، مسقطا كل واقعه الشكي على الواقع الموجود فعلا . انه يرى ان الدائرة ليست موجـــودة وان الموجود ، شيء اخر يمكن تسميته ، المنضدة ، او الثلج ، او السواد ، او أي شيء اخر ، حيث انه يرى ان العلاقة بين الكلمات وبين مدلولاتها هي علاقة خداعية وتعسفية في آن ، قصدها ان تجعل وجود هـــذه الاشياء اعجم وبلا أهمية ، لذلك فعليها ان تهرب من مكيدة هذه العلاقات التي نتصور انها صلبة وقاسية ونهائية ، وان الاشياء قد سيجت بهـا تماما . ان عليها ان تهرب من اللغة ، من العلم ، لانها اكثر وجـــودا ، واكثر آخرية مما تصفها به هذه الاصطلاحات العلمية واللغوية .

وخبرة روكانتان على درجة كبيرة من هذا النوع من الشك حيث كان يخضعها كل يوم لهذا المنهج الشكي ، وقد مارس الشك حتى خـلال عمليات استقرائه للحقائق المتتابعة التي كان يقرأها « لم لاتكون اللهاة موجودة لاجل اللسان ؟ » وايضا خلال التقسيمات النوعية حـــول (النورس البحري) حيث ركز على خواص الاشياء وجردها حتى مـــن أسمائها (مقعد الترام ، وجذور شجرة الكستناء) ، لقد رأى الواقـــع وهو في حالة سقوط والوجود في حالة قلق ، فتاق الى منطقة الاشياء كضرورة لانقاذ العالم من هذا السقوط ، ومن ثم رغب في ان يكون بامكانه معرفة الاشياء كلها ، خلال تفاعلاتها من اجل البقاء بل ومن اجل ان يصبح وجودها ضروريا . غير انه استغرب ان تستحوذ عليه هذه الرغبة ، وحاول ان يكون في استطاعته ان يتعرف على هذه الاشياء بمساعـــدة « هام » حتى يمكنه ان يشفى من هذه الرغبة الشبقية ، ولو عن طريـق المعرفة الوصفية للاشياء التي تنقذه الى حد ما من هذا الموقف الشكي، عوضا عن التحركات الكثيرة داخل معميات الحلول الميتافيزيقية . وعـلى هذا فلم يكن روكانتان يحس احساسا أكيدا بضرورة المعرفة العقليـــة اليقينية كوسيلة لايمكن سبر جوهر الاشياء بدونها ، لهذا فقد اختبـر شيئا فشيئا طرق التفكير ، والاحاسيس الانفعالية ، وادرك في النهاية النتائج العدمية لدراسته ، حيث اقصى نتيجة كان بامكانه الحصـــول عليها خلال اجتيازه مفازات الشك وصحراواته الشاسعة هي اصابتـه بمرض عصابي ، على الاقل خلال تفريخه للهموم الكثيرة التي اثارتهـــا مشكلة اللغة . وخلال كل هذه الاشياء كان روكانتان متناسبا مع عمـره تماما ، الا ان الذي وضعه في عداد الوجوديين الشكاكين هو نوع رؤيته للواقع الذي هو جزء منه ، تلك الرؤية التي كانت تجعل وجود الاشياء السمج خارجه يؤرقه ، حتى في اللحظات التي كان يتجاهل فيها هـذه الاشياء . تلك الرؤية التي كانت تعمق احساسه بالخطر حينما يشعـر بأن فرديته قد اعتدى عليها بأي تدفق لاحسي ، والتي كانت تظهر فـي شففه ولهفته على الاهتداء الى طريق يغير مجرى حياته .

ولم تكن أحاسيس روكانتان في حد ذاتها على درجة كبيرة مـــن الندرة والغرابة ، فقد عانينا جميعا الى حد ما من ذلك الاحســـاس

(٨) الغثيان ص ١٥٦ ، ١٦٦ عن النص الفرنسي .

في المكتبات

انا وسارتر والحياة

بقلم سيمون دوبوفوار

ترجمة عايدة مطرجي ادريس

في هذا الكتاب الرائع تروي لنا الكاتبة الوجودية الكبيرة قصتها مع الرجل الذي كان شريك حياتها ، من غير ان يكون زوجها ، جان بول سارتر . وهي من خلال ذلك تقص تلك المغامرة التي ادت الى انتصارها : كيـف اصبحت كاتبة الى جانبه . وكيف كانا وما يـــزالان يواجهان الحياة .

قصة رائعة ، عميقة ، نابضة بالحياة

منشورات دار الاداب ـ بيروت

الثمن اربع ليرات لبنانية او ما يعادلها

بالخواء وباللامعنى الذي ندعوه السأم ، غير ان الاحساس بالسأم او الملل الذي مررنا به جميعا الى حد ما ، يبعد كثيرا عن ذلك الاحساس المبالغ فيه والذي رسمه سارتر من خلال تصويره لشخصية روكانتان ، ذلك لان احساسنا العادي بالضياع وبالخلو من المعنى ناتج الى حد ما عن اهمالنا وغفلتنا وعجزنا عن الفهم الواعي لواقعنا الاقتصادي والاجتماعي مما يدفع بنا الى الضياع والسأم ، وأثناء هذه الدوامة من الضياع والسأم ، يلقى سارتر بسؤاله الاثير ... ماهو الفكر ؟.. ويحاول ان يجيب عليه خلال افعال البروفسور (ريل) الذي يدهشنا بتقسيماته الباهرة ، عن الاحاسيس الجسدية ، وعن الكلمات الجياشة اللامرئية ، وعن القصة التي رواها لنفسه اخيرا ، وحينما ننظر بوعي الى هذه الاجابات فسوف تتلاشى معانيها رغم الصياغة الباهرة التي توحي بالعمق ، كما اننا اذا ماتأملنا حياتنا من لحظة لاخرى فقد نلاحظ ـ كما فعل روكانتان ـ مقدار الاشياء الكثيرة التي نقوم بها دون وعي ، وسوف نلاحظ ايضا الانماط التحايلية المصطنعة التي تعيش في ذاكرتنا ، والتي لاتعني شيئا بالنسبة لحاضرنا ، حيث تلاشت تماما بالنسبة لحياتنا ، غير انها خلفت بعد انسحابها هذه الاثار البسيطة التي تكمن في ذاكرتنا رغم انها لاتعني شيئا .

وخلال هذا الاغراق في التأملات مايلبث روكانتان ان يطرح على نفسه هذا السؤال .. هل من الممكن ان نتنجب الكذب في اعمالنا ؟.. مثيرا بذلك واحدا من القضايا الاساسية التي يطرحها الكتاب ، ومع ان هذه القضية رغم بديهيتها لاتلح على ذهن البرجوازي ، الا ان احساس روكانتان الذكي بتفسخ المعاني وانهيارها هو الذي دفعه الى النظر بدهشة الى اشياء لايراها البرجوازي عادة رغم وقوعها تحت نظره . انه لاينساءل عن ماضي او حاضر المدنية التي يعيشها ، بل كل الذي يهمه هو ان يحقق الى حد بعيد تلاؤمه مع اطار طبقته الاخلاقي ومع قيمها وفضائلها البالية دون ان يكون في ذلك قضاء على وجوده الفردي . غير ان ملاحظة روكانتان لهذه الاشياء وملاحظته ايضا لتلك الاهمية الذائفة التي يشحنها البرجوازيون في يوم الاحد ، وهذه الافكار والاستعارات الكثيرة عن الحق والواجب ، هي التي كشفت امام عينيه عرى واقعهم ، عرى وجودهم . ولكن هل بامكان واحد من البرجوازيين ان يخرج عن هذا النطاق الاستعاري الاخلاقي لواقعه الاجتماعي ؟ انه بذلك يصبح خارج طبقته ، ويلتقي مرة واحدة مع واقعه فاقدا بذلك كل القيم المجتمعية التي يستمدها من احساسه بالاندراج تحت لواء هذه الطبقة، ان سارتر بهذا يقع لاشعوريا على القيمة الايجابية لانعزال الانسان عن طبقته وعلى المضمون الثوري لهذا الانعزال ، حينما يهتف « لقد ذهبوا بعيدا » .. جوجان ورامبو .. وكل القديسين حين قصروا في تقويم وجودهم فاقدين بذلك خطوة واسعة كان بأمكانهم اجتيازها في سبيل تخلصهم من الايمان المزعزع الرديء ، وكافة القيم البرجوازية ليصلوا معنويا او روحيا الى تحقيق جزء من الراحة البشرية ، كما يبدو ذلك في احساس روكانتان بفقده لدوره في الحياة كانسان اجتماعي بعد ان يستنير وعيه ، عند ذلك تجتاحه الرغبة في عمل أي شيء ، وذلك كوسيلة لتحقيق كينونته ، اذ تلك هي الطريقة الوحيدة لتحقيق هذه الكينونة وليس بأمكان العلاقات الوثيقة بالاخرين ولا أي وجهة نظر اخرى ـ بما في ذلك وجهة النظر الشكية هذه ـ في رؤية الاشياء ، ان تحقق له وجوده او تمنحه ولو احساسا بالنقاء المعنوي . ولا يستطيع روكانتان ان يصرح الا ببعض هذه الاحاسيس العديدة ، حتى لتلك المدرسة الريفية (آني) أمينة سره الوحيدة ، والتي يمكن اعتبارها بديل « الانا » في ذاته ، غير ان اغراق روكانتان في التأمل الباطني ، كنتيجة طبيعية لعزلته ولطهرانيته الغريبة ، هو الذي دفعه الى ان يصرح ـ ولو حتى ـ بالحد الادنى من أحاسيسه ، كما انه هو الذي دفعه الى حد ما الى ان يلعب دوره ، وان كانت النتيجة النهائية لتحليل شخصيته تظهره كشخص سلبي الى حد ما . ولكن كل مايمكن ان نتعلمه من ذلك ، هو انه من الضروري ان نعيش دائما ، مشحونين بالتفاؤل لا بالتشاؤم ،وذلك ليس فقط لكونه الواجب الذي تفرضه علينا طبيعة مجايلتنا للواقع ، بل انه راجع ايضا لكون كل دقيقة في حياتنا تتساوى في اهميتها مع الابدية . كما انه ليس علينا ان نعيش باحاسيسنا في الماضي ، ولا ان نستغرق في هذا كلية ، لان في ذلك تدميرا لخططنا في مهدها وتحطيما لاخلاصنا لها.كما ان ذلك يجمدكلماتنا ومن ثم قيمنا التي كان بأستطاعتنا ترسيخها وتدعيمها خلال نقدنا الذاتي لها كل يوم ، حيث نعرضها في كل لحظة لاختبار قد يؤدي الى تحطيمها واعادة بنائها من جديد ، ومن ان هذه الضرورة تطرح نفسها من خلال المنهج التحليلي ، الا ان سارتر لم يوضحها ، ومن ثم لم يمتحنها .

فالغثيان تقدم تجربة بدون اجابة واضحة عن المشاكل الاخلاقية التي عولجت ، ومع ذلك نجد ان اكثر قرائها من الاصلاحيين ، ذلك لان روح الكراهية الشعرية للمواقف اللااخلاقية التي تنفثها في الكتاب العاطفة السلبية هي فقط التي تجعلهم يظنون انها كسب لهم ، بينما نفتقد فيها الحل الايجابي الحاسم الذي يقول .. اذا كنت تريد فهم بعض الاشياء، وجب عليك مواجهتها عارية .

فحتى روكانتان حينما عمل في النهاية على تذويب الشك بأي معدل ممكن ، كانت هذه هي وسيلته الوحيدة للنجاة الشخصية من لعنة الوجود ، ذلك لان روكانتان افلاطوني بطبعه ، حيث مثله الحديثة عن الكون ـ والتي تتكرر دائما في افكاره ـ هي تلك ذات المدلولات المحددة الواضحة النقية والغروية وغير الموجودة في آن . فالنغم الصغير الذي تخطاه الموت مرة بعد اخرى ، اصبح نوعا من الضروريات ، حيث وجد روكانتان في هذا اللحن الصغير السبيل الى خلاصه الغامض . لقد فكر في الزنجية واليهودي اللذين خلقاه ، فوجد انه في هذا اللحن يكمن خلاصهم ، خلاصهم الابدي الذي لايموت ، ذلك لانه ليس خلاصا حدسيا او رمزيا يطلمس وجودهم الخاص حيال الاخرين ، كما انه

شعر

من منشورات دار الاداب

وجدتها	فدوى طوقان
وحدي مع الايام	فدوى طوقان
اعطنا حبا	فدوى طوقان
عيناك مهرجان	شفيق معلوف
قصائد عربية	سليمان العيسى
الناس في بلادي	صلاح عبد الصبور
مدينة بلا قلب	احمد عبد المعطي حجازي
ابيات ريفية	عبد الباسط الصوفي
رسائل مؤرقة	سليمان العيسى

دار الاداب

بيروت ـ ص.ب ٤١٢٣

ليس كخلاص هيروستيراتيوس (٩) ، لقد استطاعا به ان يحققا خلاصهم لانهما ابدعا عملا فنيا ، ولقد اختار سارتر اغنية « بعض هذه الايام » لكونها اغنية حيوية نسبيا ، وليس ثمة شك في هذا السبب ، ذلك لان هذه الاغنية ليست احدى المنجزات العظيمة ، ومن ثم يتجسم فيها نوع الخلاص الذي يتمنى روكانتان ان يحققه ، ويمكننا ان نستشعر رغبته الايجابية الحادة في الخلاص خلال جملة او جملتين وليس اكثر« لابد ان تجيء اللحظة التي سأكون قد انجزت الكتاب فيها ، ولا بد ان اتركه من خلفي ، غير انني سأفكر ولو قليلا في هذا التالق الذي لون حياتي ثم خلال ذلك سيمكنني تذكر حياتي دون اشمئزاز .. وسوف يكون بمقدوري في الماضي .. في الماضي فقط ... ان اتقبل نفسي » .

وكثيرون من قبل قد فكروا في الخلاص خلال القمة ، فلقد حاولت (فرجينيا وولف) « ان تصنع من الدقيقة شيئا هاما وحيويا في آن » عن طريق التثبيت الاخير لها ، بينما حاول (جيمس جويس) ان يغير الحياة ذاتها داخل الندب ، ويمنحها جاذبية وتماسكا اسطوريين ،في حين فتش (بروست) عن الذكرى وعن الزمن الضائع ، حتى يلصقنا بالحاضر ويربطنا به ، ذلك لان الحاضر مكون من جزئيات ماضينا المحض . ولكن ماهو الجواب الذي قدمه روكانتان كحل للقضية مخالفا بهذه الحلول السابقة ، ويمكننا القول بان سارتر لم يستطع ان يقدم اي حل للقضية خلال كتابه ، فقد كان روكانتان على اتم استعداد لكي يمارس اي احساس يمكنه من تبرير العبثية والهرب منها ، ولقد كان متأكدا بانه سوف يحس بالراحة بعد كتابه روايته ، وبعد ان يصبح مؤلفا ، خالقا مبدعا ، لكنه لم يفعل ، فلكي يفعل هذا لابد من السقوط في شباك معقده كالتي فضحها بنفسه اخيرا خلال محاولته للامساك بالزمن من طرفيه ، وخلال القصة الرائعة الصعبة التي سيصبح قادرا بعد اتمامها على استيعاب حياته الخاصة بشكل خالص ، فان الخلق الفني هو الذي سيهبه الوضوح والاهمية ، ذلك ما اعتقد ان سارتر يقصده « بالسقوط الاشراقي في الماضي » وحتى ذلك فانه يكون حلا هزيلا ولا مرضيا . فالرواية يجب ان يفكر فيها باعتبارها درجة من الطموح في سبيل الوجود ، ولو ان المقارنة تبدو غير سائغة هنا عنها في حالة اي نوع من الفنون الاخرى ، ذلك لان الرواية تبدو دائما وكانه مفكر بها في محاولة عن تصور الحياة الشخصية في زمن ما ، وعن ضبط النفس كشيء كيفي للتجانس والانتماء الضروري ، ولكن يجدر بنا ان نتساءل ، ما هو حال روكانتان المبدع ؟!.. وماذا فعل لكي يحول توقه هذا الى احتمالات حتى في ماضيه ؟!... انه اكتفى بان ثرثر عن عدم وجود افكار معاصرة للتداول الضروري ، بينما لايقدم هو شيئا اكثر من قوله ان اي احساس ضروري لابد ان يكون وهميا ، وذلك للاسباب التي عرضها روكانتان خلال الكتاب ، ان افضل حل يمكنه من تحقيق رغبته في ان يكون مذكورا ومبررا ، هو الحل الذي مر على لسان روكانتان في عفوية اثناء تامله في الشكل الجمالي لروايته حينما قال لنفسه بسرعة « لقد فعلت ذلك » لقد كان العمل هو مفتاح الطريق الى تحقيق وجوده غير انه لم يدرك ذلك .

لهذا فاهمية الغثيان لاتكمن في نهايتها التي سودها سارتر دون الكشف العميق عن الحل الملائم ، بل تكمن اهميتها في تلك القوة التصويرية المدهشة التي تغمر الرواية ، وفي التصوير الواعي الموجه للمناقشات ، وفي هذه الاستدعاءات للاشياء اللزجة الدبقة العجينية التي تبدو كنوع من الشعر المزيف ، يشدنا للقراءة ويقذف بنا في ممرات عديدة يعرفها من صاحب سارتر في اعماله الاخرى . كما ان

(٩) هيروستيراتيوس Herostratuse هو الشاب الذي تقول الاساطير اليونانية انه قد اشعل النار في معبد ديانا في ايفيسيوس حتى يصبح مشهورا ، وقد درس سارتر المعادل المعاصر لهذه الشخصية في كتابه Le Mur

(المترجم)

الحلاوة الشكلية للاشمئزاز الذي هو واحد من اشكال الغثيان نفسه ـ والتي صورها سارتر على طول الرواية ـ لاتخلف اثارا ضارة دائما ، ولهذا فقد اهتم سارتر اهتماما بالغا بطبيعة هذا الاحساس ، مبقيا على التداخل بين الصفات الدقيقة وغير المحبوبة فيما نراه حقيقة عبر مفاهيمنا الجافة للعالم المرئي ، كما ان رغبتنا في اعادة اكتشافنا للاشياء المحيطة بنا ، والتي تكون اليفة وغير مرئية عادة ، هي التي تجعلنا نرى هذه الاشياء فجاة وكانها اشياء غريبة عنا تقع تحت نظرنا للمرة الاولى. ودائما مايخلف ذلك نتيجة مضطربة وفوق واقعية (سريالية) كما انها تكون محركة للعواطف ايضا ، ذلك ان الرؤية الواقعية للاشياء ، بالنسبة لمتامل ميتافيزيقي ، تكون باردة وقاسية ومظلمة ومليئة بالمخلوقات التي تطفى على الاشياء النضرة الخضراء التي تساعد على خداعنا ، في حين تضفي الرؤية الظواهرية للاشياء بعض العمومية على منظار الشاعر او الرسام او اي شخص اخر .

واذا اردنا بعد هذا ان نعرف الى اي جنس ادبي تنتمي الغثيان فاننا نجد انها اقرب شبها بالشعر او المقامات منها بالرواية ، فرغم اننا نجد بطلها مسليا الا انه لا يؤثر فينا بصفة خاصة ، ولقد قال سارتر في كتابه (الكينونة والعدم) « ان التامل الباطني الخالص لا يساعد وحده على كشف الشخصية » . لهذا فاننا نجد ان روكانتان قد صور بطريقة مغلقة داخل اطار من الغرور العادي والشغف الانساني ، بحيث جعله هذا اكثر قربا من اللالون . فحتى معاناته لا تحركنا ، ذلك لانه في اطار هذه المعاناة التجريدية لا يستطيع ان يمس الجزء الحساس من نفوسنا . فصلابة الغثيان ولونها يكمنان في رفضناللتطرف في طهرانية روكانتان اللاشعورية عند احساسه بالاشياء المحيطة به . ذلك ان البطل الذي يبلغ هذا الحد من الطهرانية الشفافة في عالم لا معقول ، يذكرنا باعمال كافكا . غير ان الغثيان لا يمكن اعتبارها رواية ميتافيزيقية مثل « القلعة » رغم كل طهرانية روكانتان وشفافيته هذه . كما ان لا معقول سارتر يختلف عن لا معقول كافكا . ان (K) (١٠) بكل كافكا ليس ميتافيزيقيا بشخصه ، اذ ان اعماله تبدو لا معقولة في حين ان تفكيره ليس تحليليا كلامعقولية عالمه ، ان بطل كافكا يبدو ميتافيزيقيا من خلال وضعه في العالم ، بينما نجد بطل الغثيان متاملا تحليليا ، الا الغثيان عموما ليست تصويرا ميتافيزيقيا لازمة الانسان المعاصر ، وليست اكثر من تحليل فلسفي يهدف الى دفعنا قصرا داخل عالم من التصور الميتافيزيقي ، وهذه الانعكاسات المناسبة لوعي الشخصية الفلسفية الخصوصي ، هي التي تميز الغثيان عن غيرها من الروايات الاخرى التي لا يساوي ما فيها من فكر مثقال ذرة من تجاربنا او من طبيعة احساسنا الظاهري بالاشياء . لهذا بينت (فرجينيا وولف) احساسنا الكسول بالزمن ، كما اخبرنا (بروست) عما يمكن ان نتجنبه من حضور الاشياء المحبوبة ، خلال السلبية التي اظهرها اخيرا ، في حين حشد (جويس) ادق التفاصيل حتى انه ليستحيل العثور على قصة له تخلو منهـا .

فبينما تشبث K بطل كافكا بيقينية الايمان في وجود احساس طيب جديد في عملنا العادي وخلال اتصالاتنا الانسانية ذلك ان كافكا يشحن عالمه دائما بالدلائل التي تشعر بطله بالالتصاق بحضوره وبمرافقته لامله الى الابد ، نجد ان بطل سارتر رغم وعيه واستنارته

(١٠) ان (K) هو بطل فرانز كافكا ـ ذلك الغراب التشيكي الذي كتب كافة قصصه بالالمانية ـ الاثير ، انه رمز الانسان المعاصر المقذوف بلا رحمة في هذا الكون الكبير حيث حاصرته عبثية العالم ولا معقوليته . ان (Joseph K) هو بطل المحاكمة (The Trial) وهو بطل القلعة The Castle وهو بطل كافكا عموما رغم انه يحمل اسما اخر في بعض الاحيان مثل جريجور سامسا كما في المسخ (The Metomorphoris) ولكنه يظل دائما هذا الكائن المقذوف في دروب ضابية لا تطلع عليها شمس « المترجم » .

(المترجم)

لا يستطيع أن يبحث عن احاسيس جديدة في مكان اخر غير ذلك الذي عرفه او اقام فيه ، رغم وجود هذه الاحاسيس بوضوح في مكان اخر الا ان طهرانية روكانتان ، ونقاءه ـ هي في زعمه ـ التي ستخلصه من العبثية . ولقد وعد روكانتان بالظهور في الوقت المناسب حتى يصبح فيلسوف المازق ، بينما (K) كون مأزقه داخل كل انسان ، مما يجعلنا نسلم بمنطقيته وكانها منطقيتنا نحن .

ان مشاكل روكانتان ليست هي مشاكل الانسان العادية بحال ذلك لانه ميتافيزيقي عضال بطبيعته ويعيش كلية بلا اية علاقات انسانية غير ان سارتر ـ فيما اعتقد ـ قصد ان يقدم لنا هنا تصويرا للموقف الانساني بصفة عامة ، فاذا كان ذلك هدفه فعلا ، فليس ثمة شك في انه نجح في ان يوضح التركيب الخاص لمفهومه عن هذا الموقف ، فالغثيان هي اسطورة سارتر الفلسفية ـ لماذا ؟.. هكذا يسال جابرييل مارسيل ذلك لان حشد المواقف العرضية بهذه الغزارة يشعرنا بالغثيان اكثر مما يشعرنا بالعظمة ، وهنا ينبغي لنا ان نسال .. اذن ما هو الرمز الاساسي في هذه الرواية وما هو تفسيره ؟..وبالعودة الى الفصل المسمى ، حالة اظهار النوع في كتابه (الكينونة والعدم) سنجد ان سارتر يناقش في هذا الفصل سحر اللزوجة التي يصفها بانها ذات وجود نوعي مستقل وبلا وسيط ، وهذا هو احد المفاتيح الرئيسية لتصوره للانواع وفهمه لكينونتها وسلوكها ومقاصدها . ان هذه الاشياء تواجهنا منذ البداية لانها تخدمنا كاي تصور للشعور ولشكل الامتلاك ، ذلك ان مقارنة العقل باللزوجه تظهر لاحاسيسنا كم من المراهقة تختفي خلف هذه الافكار . فمواجهتنا للزوجة واستمتاعنا باكتشافها وملء تجاويفها لا يكون عموما لنفس السبب الذي بينه (فرويد) ولكن لرغبتنا في فهم نوعية هذه الفصائل احيانا .

وقد كشف روكانتان عن موقفه الانساني خلال طريقه الانساني المختزل ، انه توقه لاتباع الطريق النموذجي الذي وضحه سارتر في (الكينونة والعدم)كخلفية تخطيطية لكل محاولاته ، ذلك انه لم يكس نفسه باي شكل كانسان عادي .. لم يكسها حمائيا .. او جنسيا او سياسيا ، او عقائديا ، لم يكس عري وجوده باي شيء من هذا ومن هنا كان الشكل الجمالي الذي انبنت عليه في النهاية طريقة الحل التخطيطي الذي هو اكثر الحلول المعنوية استحالة حيث يترك نموذجنا دون اي تغيير جوهري شكلا فاشلا.ومع هذا فلم يكن روكانتان غريرا حتى النهاية ، في تصوراته لان اي شكل من اشكال الاجتهاد الانساني كان كافيا لان يمكنه من ادراك ذلك كلية ، حيث الشر ـ كما يقول سارتر في كتابه « الادب » ـ لا صلة له بالانسان ولا بعالمه المفكر به ، وهذه الحقيقة هي الفكرة الوحيدة التي اكدها روكانتان كشخص مستنير وهي الفضيلة الوحيدة التي حققتها « الغثيان » مبينة النموذج العاري للوجود الانساني ، منيرة بدرجة من الوعي الفلسفي ذلك الكشف العقيم للمصير الغريب الذي تلاقيه عادة خططنا الغامضة .

اذن فما الذي فعله سارتر ليساعدنا على فهم خرافته تلك ؟ لقد فشل بصراحة في حله الجمالي ، وليس هذا فقط ، بل انغمس روكانتان في ملاحظاته باشمئزاز لصلابة التقاليد البرجوازية ، لا ندري لماذا الا ان الاشراقة النقية التي بعثها فيه ذلك اللا حنالصغير قد منحته حضورا دائما ، يجعله قادرا على تخيل النهاية الحقيقية له . كما برهن هذا اللاعقلي ، اللا وجودي على سلبية المناقشة ضد الراسماليةاو بمعنى اكثر عمومية ضد الفلسفة الاداتية والبيروقراطية التي لا يمكن ان تساعد الفرد في حالة التصاقه بها على تكوين شخصية مذهبية مستقلة ابدا .

وعلى هذا فان الفهم الكامل « للغثيان » هو الذي سيساعدنا على النظر في اعمال سارة الاخرى ، ذلك لان هذه الرواية هي العرض المستنير لكافة افكار سارتر وارائه التي نثرها على امتداد اعماله الاخرى .

القاهرة — ترجمة : صبري حافظ

سلسلة المسرحيات العالمية

سلسلة جديدة تقدم فيها دار الاداب مجموعة رائعة من اشهر المسرحيات العالمية التي وضعها كبار كتاب المسرح

صدر منها :

١ ـ البغي الفاضلة وموتى بلا قبور

بقلم جان بول سارتر

ترجمة الدكتور سهيل ادريس والمحامي جلال مطرجي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٢ ـ ماريانا

تاليف فديريكو غارسيا لوركا

ترجمة شاكر مصطفى

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٣ ـ هيروشيما حبيبي

تاليف مرغريت دورا

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٤ ـ لكل حقيقته

تاليف لويجي بيراندللو

ترجمة جورج طرابيشي

الثمن ٢٠٠ ق.ل

٥ ـ تمت اللعبة

تاليف جان بول سارتر

ترجمة مجاهد ع. مجاهد

الثمن ٢٠٠ ق.ل

منشورات دار الاداب ـ بيروت